

من نقد الحداثة الى مقاومتها

خالد عودة الله

" مهمة الخيال هي ربط الصلة بين الفكر والحقيقة التي لم يهتد اليها بعد او بين الانسان واماله المترامية "

سيد قطب (مهمة الشاعر في الحياة)

تحاول هذه المداخلة المتواضعة ان تعمق الوعي بسؤال النقد وموقع النقد في الراهن الانساني الموسوم بعصر العولمة او الامبراطورية، من خلال اعادة الاعتبار الى موقع " الفضاءات الجغرافية "المسقطه من مشاريع النقد الموسومة بالعالمية (الاوروبية)، وكقاعدة لتوجيه النقد / المقاومة تقترح هذه الورقة الاسلام كموقعا لتجاوز النقد الى المقاومة، وهذا الحركة من النقد المقاومة تتأسس على مقولتين اولاهما تتعلق بالراهن الحداثي من حيث كونه موضوعا للنقد ، والثانية تتعلق بمحاولة تحرير موقع للنقد ، مغاير للحداثة ونقد الحداثة لذاتها معا

أولاً: الخروج من نفق الحداثة فائق الانارة :

تشكل مقولة النقد مقولة شبكية في الفكر الحداثي / المابعد حداثي، وعلامة على وعي واثق بذاته ونفس حداثية مطمئنة في وبمشروع الحداثة الذي يترأى كحضور سديمي متجدد، وتتحصل بلاغة النقد فلسفيا من اقتدار مزعوم (او لنقل متوهم) على وعي انعكاسي عند الذات الحداثية تتقوم بالايمان بقدرة العقل الحداثي الاوروبي ان يكون موضوعا للنقد وذاتا ناقده والة للنقد معا.

وتشكل أيديولوجيا النقد ركيزة مهمة في تبلور وعي الذات الاوروبية الحداثية بمناعة وحصانة ضد احاديث النهايات ونبوءات الافول. هذه الوثوقية العالية بالعقل النقدي وقدرته على التجاوز لم تمنع احد اعمدة مدرسة فرانكفورت النقدية ماركوزة من الاعتراف بمرارة بالمالات الحزينة للنقد الحداثي التي تجاوزت افول العقلانية الجوهرية او النافذه وارتكاسها لعقلانية اداتية ، الى اضمحلال امكانية النقد بحد ذاته كوعي انعكاسي، فقد اصبح متعذرا في الراسمالية المتقدمة ومع النمو الهائل للتكامل والاندماج والتناسق داخل المجتمعات الراسمالية، الحفاظ على الفاعلية النقدية حيث تتهاوى المقولات النقدية وتفقد فاعليتها وحمولتها النقدية / وتصبح المفاهيم النقدية شيئا فشيئا مفاهيمها وصفية ، مخادعة، ومع اضطراد النمو للعالم الراسمالي تفقد النظرية النقدية القدرة على تجاوز المجتمع ، الى ان تصبح النظريات والمقولات النقدية ادوات اجرائية بيد القوة المهيمنة. لقد تحولت النقدية الى سلعة معرفية

تتخذ اشكالا تبادلية متعددة كتاب نقدي ، دورية نقدية ، محاضرة نقدية ، وتحول النص النقدي الى متون وهوامش ونقد للنقد ونقد نقد النقد في سلسلة تتوالد ذاتيا الى ان اصبح لدينا ملايين الكتب والمقالات والدراسات النقدية وعشرات النظريات النقدية المعقدة دون ان يتمكن كل هذا النقد من التأثير في الواقع ولو جزئيا.

استكمالا لحالة الانسداد النقدي هذه ظهر ما يسمى بالمنعطف اللغوي (والذي يمكن ان نسميه بالمهرب اللغوي) والذي فرخ النقد الموسوم بالمبعد حدائي الذي بقي عاجزا عن اضافة ولو معاني موزيه او مختلفة للنقد الحدائي ، بل على العكس من ذلك حيث اضاف العديد من الرقات (الطبقات) على اللب الحدائي مما زاد في استعصائه على الكسر والتهشيم . واصبحت ونتيجة للهيمنة الاوروبية الحدائية على العالم ، الاطراف الحدائية المستعمرات - المهيمنات الاوروبية تعيش ازمة مركبة : ازمة الحدائة وما بعد الحدائة في ان معا .

بلغ طغيان الحدائة وشموليتها من حيث هي حدائة (وليس المقصود بالشمولية هنا تواريخ حدائية جزئية النازية - الستالينية) حدا تمكنت فيه الحدائة وبفاعلية هائلة (والفاعلية قول الحدائة الاول) ان تعيد انتاج ذاتها من خلال ما تزجيه من مسارب للخروج من ازماتها، حيث لم يتبق لنا ونحن المحرقون بحرب الحدائة معرفيا وعسكريا الا ان نطفر الى موقع مفاير خارج / داخل هذا النظام الشمولي الكوني لكي نقود مقاومتنا ضد حرب الحدائة بما هي حدائة ، وانا استخدم مفهوم "الطفر" هنا كما عند الفيلسوف المعتزلي ابراهيم النظام بمعنى الحركة من مكان الى مكان دون المرور بالمكان المابين " اي محاولة تحقيق الانسلاخ عن الحدائة معرفيا لمواجهة الحدائة غير قابلة للنقد داخليا ومن ثم التجاوز، فالحدائة بطبيعتها العنيفة والخلابية هي فلسفة لنهاية التاريخ دون ان تحتاج لمن يودلج نهاية التاريخ كاحد تطوراتها ومالاتها ومن ثم اتخذت هذا المظهر السديمي، فالراهن الحدائي بكل مكوناته (الحدائة/نقد الحدائة) يشبه النفق المضاء اضاءة ساطعة، لانارة عتمة النفق ، علينا ان لا نجعل عيوننا تعتاد نور النفق ومن ثم لا تعد قادرة على الرؤية خارج النفق .

ثانيا : في معنى الحدائة او انبثاق العالم الحدائي / الاستعماري

"ما له تاريخ لا يمكن تعريفه"

نيتشة

تقصي الرواية التاريخية الاوروبية للحدائة (اسطورة انبثاق الحدائة الاوروبية) الجغرافيا المستعمرة من مدنيتها ، فتؤرخ "الحدائة لذاتها" بتعاقب الازمان من عصر النهضة الى عصر الحدائة الاولى، اي ان هذه الرواية تقوم على الملحمة الحدائية التي توالفت فصولها على مسرح الزمن الاوروبي، مغيبا الجغرافيا المستعمرة المتشكلة عبر 500 عام من غزو العالم والتي تشكل المقدمات الحقيقية لتشكيل ما يعرف

"بالحدثاثة" ، بعيدا عن ايدولوجيا التاريخ الحدثاثة الخطي (العصور القديمة - العصور الوسطى - الى الحدثاثة المبكرة وصولا الى الحدثاثة). وبعد تغييب الجغرافيا من سرد انبثاق الحدثاثة، تم استحضرها لاحقا في العالمية الحدثاثة الانتشارية المتقدمة من عواصم الحدثاثة / الاستعمار الى الفضاء الكوكبي الخام او الفارغ ، واسطورة الفراغ تتقوم بفراغات ثلاث : خلو الفضاءات الغير أوروبية من السكان او شبه خالية من السكان وبهذا يصبح الاستيطان/الاستعمار لا يتضمن تهجير لاصحاب الارض، الخلو من السكان المستقرين وبالتالي فان الاستعمار الاوروبي لا ينتقص من سيادة اي جماعة سكانية لان هذه الجماعات لا تدعي سيادة على ارض ، والخلو من الملكيات الفردية الخاصة وبهذا لا يوجد ملاك للارضي ينتقص الاستعمار من حقوقهم في الملكية وما يغلف هذه الفراغات الثلاث خلو هذه المناطق من النشاط الفكري الابداعي الانساني و القيم الروحية اي غياب العقلانية مقولة الحدثاثة الاولى ورسالتها الى العالمين. فالمكون الاستعماري هو مكون ماهوي في الحدثاثة، وتبدأ عملية مقاومة الحدثاثة من لحظة الوعي بالمكون الجغرافي / الفضاءات المكانية كمكون حاسم في انبثاق الحدثاثة، من حيث فتح الانغلاق - الحدثاثة والنقد الحدثاثة على مواقع مغايرة يمكنها ان تشكل مواقع نقدية/ مقاومة للحدثاثة .

ويتحد بالمكون الاستعماري في الحدثاثة مكون ماهوي اخر هو ما يمكن تسميته "بالروحية الابدائية" للحدثاثة الاوروبية والتي حولت المجازر والمذابح والاشكال المتعددة للابادة الى حالة طبيعية وجزء من حركة التاريخ العنيفة، وهذا التطبيع الفلسفي - النفسي مع فكرة الحرب، ورثتها الحدثاثة من الفلسفة الاغريقية التي الحققت الخاص بالعام وبالتالي اسست لمقولة العالمية التي تتحقق بالنزعة التوسعية والتبشيرية الفلسفية. ويشكل هذا الشر الحدثاثة الاستعماري مسكوتا عنه عند "ناقدي الشر الحدثاثة" حيث بقيت جغرافيا الشر الكوني تتحدد باحداثيات ثلاث الفاشية (اوتشفيتس) ، الليبرالية (هيروشيما) والشيعوية (ستالين والاتحاد السوفيتي)

الحدث الشرير عندهم على الشر الاوروبي ضد الاوروبي (النازية والستالينية) .

ثالثا : من النقد الى المقاومة :

اذا ما تحدد وعينا بالحدثاثة عبر الاستعماري - الابدائي أو كحرب أوروبا الأيديولوجية المفتوحة ضد العالم ، فان هذا الوعي يستتبع بالضرورة رؤية مغايرة للاشتباك مع الحدثاثة ، وهذه الرؤية تعني التحول من حالة " نقد الحدثاثة" الى مقاومتها، ومبتدأ حالة مقاومة الحدثاثة هو رفض الانصياع للهيمنة الحدثاثة ورفض الانصياع للافق النقدي للحدثاثة معا ، من خلال رفض الانصياع للابستيمية الحدثاثة الممتدة من اثينا الى روما الى باريس الى لندن وصولا الى واشنطن، فالاشتباك الحدثاثة يجب ان يكون على المستوى السياسي اساسا .

مقاومة الحداثة بما هي انقراض على الحداثة لا يمكنها ان تنطلق من اي موقع حدائي (اليمين - الوسط - اليسار) والا كانت نقدا داخليا للحداثة وخضوعا لافقها النقدي وقبولا "بعالمية" صنعتها الابداء ، مقاومة الحداثة تسعى الى "فتق الراهن" وفتحه نحو موقع مغاير (ولا اقول اخر) موقع مغاير خارج النظام كتحقق وكامكان . وفي هذا المعرض يمكننا فهم فشل حركات التحرر من الاستعمار (القومية - الاشتراكية) في التحرر الناجز بسبب احتفاظها بنظام الفكر المسيطر (الاجريقي-اللاتيني- وتبعاتهما الحداثية والامبريالية). حيث قامت بعملية التحرر من الاستعمار بمنطق التحرر من الامبريالية ، وبالتالي كل ما قامت به كان اعادة تموضع سياسي اقتصادي ضمن شبكات الهيمنة والسيطرة العالمية بسبب الفشل في التحرر من الحداثة/العقلانية ومنطقها السياسي الدولة -القومية، فتم الاحتفاء وتفسير نجاح الثورات الاستقلال الوطني من الاستعمار (البرتغالي- الاسباني -الفرنسي -البريطاني) بنفس المنطق "الثوري" الحدائي (لثورة الفرنسية والبلشفية) . ان الموقع المغاير الذي يجب ان نتخيله لمقاومة الحداثة ليس موقعا ليبراليا او ماركسيا او خليط منهما وهو لا ينتمي الى الارث اليهودي - المسيحي للحداثة الاوروبية ولا هو شبيهه بكاثوليكية لنيجري اوارثوذوكسية جيبيك اويهودية ليفنس .

رابعا : نحو محاولة اكتشاف / بناء مواقع / قواعد لمقاومة الحداثة :

ان التعامل بالسلب مع الراهن الحدائي/الاستعماري (اي بمنطق الليس هو) هو التجلي الاوضح للشمولية الحداثية المقفلة، وهذا الانغلاق لا يجب ان يمنعا السفر اكتشافا وبناءا ول مواقع يمكنها ان تشكل قواعد لمقاومة الحداثة الاستعمارية، وبما ان تواريخ الاستعمار والحداثة يتوحدان في لحظة الاستعمار الاولى فلعله يمكننا البدء بالبحث في الامكنة/ الازمنة التي شهدت ولادات الحداثة الاستعمارية كوعي بالعالم وكوعي بذاتها قبل ان تحيل وعيها الخاص وعيا عالميا، والبحث هناك في لحظة الاشتباك والمقاومة، ولعل احدى مواقع الاشتباك والمقاومة التاريخية والمستمرة مع الحداثة يحتلها الاسلام كتحقق تاريخي وذاكرة، وبالتالي يحضرنا السؤال عن اذا ما كان ممكنا ان يشكل الاسلام موقعا لمقاومة الحداثة الاستعمارية الاوربية . الاسلام كموقع/ كقاعدة لمقاومة الحداثة برؤية وخيال وأدوات غير حدائية ، بالمعنى التالي : بعيدا عن ترويض الاسلام من قبل تحديث الاسلام او اسلمة الحداثة ، بعيدا عن محاولة تشكيل موقع للفعل التاريخي للمسلمين داخل الحداثة الاستعمارية، بعيدا عن مفهوم سياسات الهوية والاختلاف والتعددية الثقافية ، بعيدا عن تصوير الاسلام كدين السلام ، بعيدا عن الاسلام كايديولوجيا للصراع على الدولة القومية (مقولات الدولة الاسلامية و اسلمة القوانين)، وبعيدا عن مفاهيم دار الكفر ودار الاسلام .

لعلنا يجب ان نعلم وعينا بحالة التوتر او لنقل حالات التوتر التي تظهر وظهرت في مواقع الاحتكاك المختلفة ما بين الاسلام والحداثة (الاسلام - الغرب بعيدا عن النظرة الجوهريانية لكليهما) ، ان نعني بالتوتر هذا بما هو توتر دون محاولة تهدئته ، تطوير القدرة على التعامل مع هذا التوتر دون قمعه معرفيا ، ان نمناه قوة الافصاح عن ذاته، والعناية باللحظات العنيفة في هذا التوتر كالحظات لولادات وجودية جديدة متحققة او ممكنة ، لكي يكون هذا ممكنا يلزمنا اعادة النظر بادوات النظر التحليل التي نستخدمها من حيث كونها ادوات متهممة دوما بالمشاركة في تامر الراهن على المستقبل او المتحقق على الممكن ، نحن بامس الحاجة الى الاهتمام بما تم اقصاؤه في هذا التوتر من حيث كونه غير قابلا للفهم ، والذي نطوعه بادواتنا المعرفية بان نحيله الى شئ اخر كمقدمة لوعيه ، نحن بحاجة الى اعادة الاعتبار للحدث كحدث وليس الحدث كعلامة توتر الغزالي - ابن رشد وابن رشد وابن عربي ، صدر الدين الشيرازي - الفيلسوف اليونانية، الحروب الصليبية ، مقاومات الاستعمار في المجتمعات الاسلامية، ما راه فانون في الجزائر ومنعته حداثيته من الافصاح عنه، سيد قطب في امريكا ، علي شريعتي في السوربورن، الثورة الايرانية، العمليات الاستشهادية، حرب تموز 2006 .